الحرب والحرب الأهلية عند توماس هوبز

د. بلدي عثمان عبد المجيد
جامعة الجزائر(2)

تاريخ الإرسال:13-03-2018 **تاريخ القبول:18-09-2018**
تاريخ النشر:12-12-2018

ملخص:
شهدت البشرية نشاطا مفرطا للحروب، والتي مهما تغير شكلها، تبقى أبرز ما تعاني منه البشرية. لكن أخطر أشكال هذه الحروب، الحرب الأهلية. وقد اهتم بهذه الظاهرة جملة من الفلاسفة، أبرزهم الفيلسوف الانجليزي توماس هوبز (1588-1679). ويتناول موضوع المقالة أفكاره حول الحرب، أسبابها، ارتباطها بالحالة الطبيعية، كيفية تجاوزها وفق نظرية العقد الاجتماعي، ثم كيف أن الحرب الأهلية رجوع إلى الحالة الطبيعية، وانتقال عكسي إليها من الحالة الاجتماعية.
الكلمات المفتاحية: الحرب، الحرب الأهلية، العقد الاجتماعي، الحالة الطبيعية.

Abstract;
Humanity is witnessing an excessive activity of wars, which regardless of its form remain the most acute of humanity. But the most serious form of these wars is civil war. This topic was addressed by a group of philosophers, notably the English philosopher Thomas Hobbes (1588-1679). This article deals with his ideas about war, its causes, its relation with the natural state, how to overcome it, according to the theory of social contract and then how civil war back to normal and reverse of the social situation.
Key words; The war, Civil war, Social contract, State of nature.

مقدمة:
إذا كانت الحرب موضوعا لتفكير فلسفي، فذلك لكونها مرتبطة بالإنسان من خلال كل أبعاده. بها يصنع مصيره، ومن خلالها يتحدد مستقبله. إنها محرك التاريخ الذي يرتقي ببعض الأمم إلى المجد، وينحدر بأخرى إلى العبودية. وما ابتعاد التفكير في الحرب إلا محاولة للهروب إلى عالم الأحلام عندما يفقد الإنسان القدرة على مواجهة الواقع.
وما دامت سيرورة الواقع يحركها منطق الصراع، سواء كان داخليا بين أفراد المجتمع الواحد، أو خارجيا بين الجماعات والأمم، فكان لا بد للفلسفة السياسية أن تبحث عن أنموذج لنظام سياسي يحتوي هذا الصراع، ويتحكم فيه من خلال الاتفاق على وضع أطر تنتظم فيها العلاقات بين الأفراد، وربما بين الأمم.
وقد اهتمت الفلسفة السياسية بهذا الأمر، الذي ترتب عنه بروز عدة نظريات سياسية، والتي أخذت على عاتقها البحث عن الأنموذج الأمثل، الذي يجسد بالفعل النظام السياسي العادل،

والذي يكون بدوره قادرا على خلق الانسجام والاستقرار بين الأفراد والجماعات، وبالتالي تجاوز منطق الصراع بين الأفراد والحروب بين الأمم.

إلا أن محاولة تجاوز منطق الصراع وما يترتب عنه من حروب، لا يتأتى إلا بفهم هذا الصراع، وبالبحث عن طبيعة الحرب. وهو الأمر الذي تناولته الفلسفة منذ القديم. فقد اهتمت الفلسفة الصينية بهذا الموضوع، والطابع العام الذي يمكن استخلاصه من أراء مفكريها، هو رفضها للحرب وميلها إلى السلم. فقد كان (كونفوشيوس) يرى أن القائد العظيم لا يحب الحرب، ولا متحمسا لها، ولا يكون محبا للانتقام.

كما أن أقدم الدراسات التي تناولت ظاهرة الحرب بالتفكير والتأمل، تعود إلى المفكر الصيني(صان تزو)(Sun Tzu) ويظهر ذلك جليا في كتابه" فن الحرب"، والذي يعود إلى حوالي 500 سنة ق.م. والذي يعتبر من أوائل الكتب التي تناولت ظاهرة الحرب كدراسة قائمة بذاتها. ويمكن أن لا يكون هو أول كتاب عرفه التاريخ في هذا الميدان، ولكن في الوقت الحاضر يعتبر أقدم كتاب تم العثور عليه في هذا الموضوع.[1] وفيه يرى صان تزو أن الصراع المسلح ليس استثناءا مؤقتا، وإنما هو فعل واعي يتطلب تحليلا عقليا. فالقوة الأخلاقية والاستعدادات الفكرية للإنسان، هي بمثابة العوامل الحاسمة في حالة الصراع المسلح، وهي عوامل إذا استعملت بطريقة جيدة بإمكانها أن تقود إلى الانتصار المحقق. وبهذا فان "الحرب قضية ذات أهمية حيوية بالنسبة للدولة، فهي مجال الحياة والموت، والطريق الذي يؤدي إلى البقاء أو إلى الفناء. لذلك فمن الضروري دراستها بعمق".[2] والهدف من الحرب هو الانتصار وليس العمليات العسكرية في ذاتها، وعليه " فلا يمكن لحرب مستمرة أن تحقق فائدة لأية دولة "[3] وذلك لأنها تؤدي إلى نفاذ الخزينة، وإنهاك الجيش، وتجويع الشعب.

أما بالنسبة للفلاسفة اليونان، فقد نظروا إلى أن الحرب تمثل جزءا من نظام الله على وجه العموم، فهي في نظر هيرقليط (Héraclite)، تعتبر آلة هذا النظام الإلهي. وهي التي ترتب الناس في طبقات، بحيث ترفع من بعضهم إلى مستوى الآلهة، تجعل من البعض الآخر عبيدا، أو رجالا أحرارا[4]. فالحرب بالنسبة لهيرقليط أساس الوجود ومقومه، من حيث هي تحول ونزاع بين الأضداد.

كما نجد في فلسفة كل من أفلاطون وأرسطو إقرارا بشرعية الحرب دون تمجيد لها، عندما تكون ضرورية لخير المدينة. وربما هو السبب الذي دفع بأفلاطون، عند تناوله للطبقات التي ترتكز عليها جمهوريته، التحدث عن طبقة الجند.

أما بالنسبة لفلاسفة العصر الحديث، فان الحرب تصبح مشروعة منذ أن تصبح ضرورية. وهو الأمر الذي يؤكده المفكر السياسي الإيطالي ماكيافللي، الذي يكون بذلك قد وضع البذرة الأولى لجعل الحروب جوهرية وضرورية. لذلك يرى أنه يجب على الإنسان الدفاع عن وطنه بكل الوسائل المتوفرة. والدفاع الجيد يقتضي بدء القتال أولا. ذلك أن الحرب لا ينبغي تجنبها، وتأخيرها يكون دوما لصالح العدو[5].

وعلى العموم فان ما يميز الفلسفة الغربية الحديثة منذ ماكيافللي حتى فكر عصر الأنوار، أنها تعتبر الحالة الطبيعية للإنسان، حالة يخلو فيها التنظيم الاجتماعي والسياسي، وهي حالة صراع وحرب شاملة. وتأتي الدولة كمرحلة تعاقدية مصطنعة، يتم من خلالها الخروج من هذه الوضعية الفطرية.

وقد عبر الفيلسوف الإنجليزي (توماس هوبز) بوضوح عن هذا التصور من خلال طرح الإشكال الذي شغل الفلسفة السياسية في العصر الحديث، والمتمثل في: كيف يمكن إنشاء رباط اجتماعي دائم انطلاقا من هذه النوازع المتصارعة؟ وكيف يمكن إنشاء علاقات قانونية ناجعة انطلاقا من قانون يولد بذاته من الصراع والصدام؟

عرض:

وقد تباينت المواقف في الفلسفة الحديثة بين اتجاهين متباينين: أحدهما اعتبر الدولة تحويلا للإرادة الذاتية الحرة إلى إرادة جماعية مشتركة تحقق مضمون الإرادة الحرة تحقيقا موضوعيا ، وهو ما يمثل موقف الفيلسوف الفرنسي (جون جاك روسو). والاتجاه الثاني اعتبر الدولة التعاقدية، حالة نفي للحرية الطبيعية، من أجل المصلحة المشتركة. وهذا ما اتجه إليه (هوبز).

يعتبر الفيلسوف الانجليزي توماس هوبز Thomas Hobbes (1588- 1679) من أبرز فلاسفة السياسة في عصره، بحيث وان كان قد استعان بمصطلحات عصره السياسية، كالمساواة، والقانون الطبيعي، والحقوق الطبيعية للإنسان، والعقد الاجتماعي، والسيادة، والعدالة...، فان استخدامه لها، كان على نحو يختلف عن استخدام فلاسفة السياسة السابقون لها، أمثال أفلاطون وأرسطو، القديس توما الاكويني، وجروتيوس[6].

والركيزة الأساسية التي تنبني عليها الفلسفة السياسية عند هوبز، هي نظرية العقد الاجتماعي، وتقوم على أساس أن الإنسان يمر بمرحلتين، بحيث ينتقل من المرحلة الطبيعية إلى المرحلة الاجتماعية السياسية عن طريق عقد اجتماعي.

وهنا يتميز هوبز عن غيره من الفلاسفة، على اعتبار أنه لا ينظر إلى الإنسان على أنه اجتماعي بطبعه كما هو الأمر بالنسبة لأرسطو، كما أنه لا ينظر إلى الإنسان على أنه كائن عقلي مجرد، كما هو الشأن بالنسبة لفلاسفة عصر التنوير في القرن الثامن عشر. فالإنسان بالنسبة لهوبز كائن أناني شرير بطبعه، تتجسد فيه مختلف النقائص والرذائل[7]، وما دام جميع الأفراد تنطبق عليهم هذه الصورة، فلا بد أن يحدث بينهم صراع، بفعل الأنانية وتعارض المصالح. فتتحقق عندئذ مقولة هوبز المشهورة "الكل في حرب ضد الكل".

وصفة الشر هذه التي يتميز بها الإنسان، وما يترتب عنها من حروب، هي التي دفعت بهذا الإنسان إلى البحث عن الوسيلة التي تمكنه من تجاوزها. ويكون ذلك من خلال تصور مجتمع تنتظم من خلال قوانينه العلاقات بين الأفراد، فيزول بذلك الصراع، ويحل الاستقرار. وهكذا فان مقصد هوبز من فلسفته السياسية والأخلاقية، يتمثل في إقامتها على أساس علمي، والعمل على تأسيس سلام مدني، من خلال إعداد البشرية وتأهيلها للقيام بواجباتها المدنية. [8] ويكون ذلك بانتظامها داخل مجتمع يرتكز في تنظيمه على قوانين.

ويتأسس هذا المجتمع وفق عقد، يتنازل بموجبه جميع الأفراد عن جميع حقوقهم لشخص واحد هو الحاكم، فيخضعون لإرادة واحدة من أجل تحقيق الاستقرار، وبالتالي السلام. ويكون الحاكم بذلك ليس طرفا في العقد، وعليه لا يحق لهم محاسبته[9]، بحيث يمتلك كل الحقوق، ولا يترتب عليه إلا واجب واحد، هو حفظ الأمن و الاستقرار.

وبما أن جميع الأفراد قد تنازلوا عن جميع حقوقهم للحاكم دون أن يلزموه بشيء، فان سلطته عليهم تكون مطلقة وغير محدودة. وعليه فمهما كانت تصرفاته، لا يحق لهم الثورة

ضده، أو مخالفة أوامره، لأن ذلك يجعلهم ناكثين للعهد[10]، خارجين عن قوانينه. الأمر الذي يسمح بعودة الفوضى الفطرية من جديد، وبالتالي للاستقرار، واللاأمن، والحرب.

وهكذا فان الحاكم بالنسبة لهوبز غير مقيد بقانون، فالقانون هو إرادة الحاكم. وبما أن الشعب قد تنازل عن كل سلطاته للحاكم، فان هذا الأخير ينفصل عن الشعب و لا يصبح جزءا منه، وإنما يسمو عليه ويمثل بذلك القوة والسيادة التي تنظم المجتمع السياسي. هذه السيادة تتجسد في سلطة عليا متميزة وسامية فوق كل الشعب، فهي سلطة مطلقة غير محدودة لا في مداها و لا في مدتها[11].

يتضح مما سبق أن طبيعة الحرب لدى هوبز، لا يمكن فهمها إلا من خلال فهم تصوره للحالة الطبيعية، والتي يختصرها في مقولته: (حرب الكل ضد الكل)، بفعل الصراع الدائم الذي يميزها. فما هي أسباب الصراع؟ ودوافع حرب الكل ضد الكل؟

دوافع الحرب ومصادر الصراع: تبقى الحرب قائمة في الحالة الطبيعية مادام الصراع يتحكم في العلاقات بين الناس. سواء كان قتالا مباشرا أو استعدادا للقتال. وللحرب أسباب ودوافع يحددها هوبز على النحو التالي:

1-المساواة في القدرة:

رغم تنوع القدرات الطبيعية للإنسان، إلا أنها تنقسم إلى قسمين، يتعلق احدهما بالقدرات الجسدية كالغذاء والحركة، والقسم الآخر يتعلق بالقدرات الذهنية كالتخيل والتعقل[12]، وما دامت الطبيعة قد جعلت البشر متساوين من حيث هذه القدرات، فان ذلك يشكل دافعا من دوافع الصراع بينهم. بحيث أنهم متساوون في قدرتهم على تحصيل القوة.الأمر الذي يجعل أي منهم عاجزا على إرغام غيره على الإذعان لإرادته. وبذلك يبقى الصراع قائما[13].

2-المساواة في الأمل:

إن المساواة في القدرة، أي المساواة في ملكات الجسم والعقل، بين الناس يترتب عنها بالضرورة المساواة في الأمل. وأكثر المساواة أهمية، حسب ما يرى هوبز، هي القدرة المتساوية التي يمتلكها كل الناس لأن يقتل بعضهم بعضا، وتعد الأكثر أهمية لأن اهتمامهم الأكبر هو المحافظة على ذواتهم[14]، فالقدرات المتساوية بين الناس تبث فيهم الشعور بالقدرة على تحقيق أهدافهم. ويبقى الأمل قائما مادام الاعتقاد بالقدرة على تحقيق الهدف المنشود موجود. ونتيجة لذلك يقوم كل فرد بمكافحة غيره ومصارعته لتحقيق أهدافه مادام متيقن أن لديه القدرة على بلوغ ما يريد[15]. ونتيجة لذلك يقوى العداء الطبيعي بين الناس بفعل انعدام الثقة. وبفعل انعدام وجود نظام سياسي يخضع إراداتهم، يعم الصراع.

3-المنافسة والأغراض المتضاربة:

بما أن البشر متساوون في قدراتهم الطبيعية، جسدية وذهنية، فان ذلك يدفع كل منهم إلى العمل على منافسة غيره، مادام لا يستطيع فرض سيطرته عليه، لأنه مساو له في القدرات. فجميع الناس قادرون على مواجهة المواقف المختلفة بحكمة، تؤهلهم للمحافظة على بقائهم، وفرض وجودهم[16]، وبفعل ذلك بمجرد ما تتعارض الأهداف وتتضارب المصالح، تنشأ الخصومات ويحل العداء الذي يبقى خفيا، هذه الكراهية الصامتة المحفزة على القتال، تمثل حربا غير معلنة. فالمنافسة حول الثروة أو المناصب الرفيعة، تمثل أحد العوامل الرئيسية المؤدية إلى النزاع والقتال بين الناس[17]، وهذا السعي لتحقيق الهدف نفسه، وما يتولد عنه شدو في الصراع، يجعل القتال شرسا.

4- المجد:

يمثل المجد بالنسبة لهوبز أهم مصدر للذات العقل، والذي يجعله يختلف عن اللذات الحسية والجسمية. فكل لذات العقل مستمدة من الفخر والكبرياء والاعتزاز بالنفس. وهذا الشعور اتجاه الذات يجعل كل فرد يقارن نفسه بغيره، بحيث يرغب في أن يقدره غيره مثلما يقدر نفسه. وبالتالي مستعد لمقاتلة من يحط من قدره ويزدريه[18]، ف" البشر في تنافس دائم نحو الأمجاد والكرامات، على غير حالة تلك الكائنات، (الكائنات الحية التي تعيش في تجمعات فطرية منظمة مثل النمل، والنحل) وبالتالي تظهر الرغبة والكره على هذه القاعدة بين البشر، وأخيرا تظهر الحرب"[19].

وهكذا فالمجد، مثل التنافس، يعتبر مصدرا للصراع بين الناس. فالقيمة التي يعطيها الإنسان لنفسه، تدفعه إلى فرضها على غيره. فعلى نحو ما يقدر نفسه يريد من الآخرين أن يقدروه. وعليه إذا ما تعرض للاحتقار والحط من قدره من طرف غيره، فانه يعمل على فرض احترامه بإلحاق الأذى بمحتقريه. فالإنسان مستعد لاستخدام القوة حفاظا على قيمته وكرامته. ولا يملك حلا آخر غير ذلك، فإما أن يتغلب على محتقريه أو يخضع للمزيد من الاحتقار، وبالتالي المزيد من التهديد لأمنه[20]، وهكذا فان محاولة الناس انتزاع الاحترام من الآخرين، يدفعهم إلى الصراع الذي يتحول إلى قتال.

6- انعدام الثقة:

لو أن التفاوت في القدرات كان طبيعيا بين الناس لخضع القوي للضعيف، والفاشل للمتفوق، ولما كان هناك صراع بينهم، ولما كانت هناك مشكلة. إلا أن الأمر غير ذلك، فالمساواة الطبيعية بين الناس وان كانت نسبية، باعتبار أنه يمكن تعويض النقص الجسدي بالتفوق العقلي، تؤدي إلى الأمل في النجاح، وشعور مستمر بالقدرة على تحقيق الأهداف، الأمر الذي يدفع الأفراد إلى كفاح دائم يتصادم مع كفاح غيرهم متى كانت الأهداف مشتركة. هذه المنافسة ينتج عنها ضروب من الخصومة والعداوة، الأمر الذي يؤدي إلى انعدام الثقة بين الأفراد، بعبارة أخرى بين الفرد وجميع الناس. ولن يكون له من سبيل لحامية نفسه إلا محاولته لإحباط محاولات غيره، عن طريق القوة أو الحيلة. وانعدام الثقة هي النتيجة النهائية للعوامل السابقة[21].

نتائج الحالة الطبيعية: إن فتراض الحالة الطبيعية يترتب عنه نتائج لازمة عن هذا الافتراض، يمكن اختصارها فيما يلي:

1-الناس سواسية في الحالة الطبيعية، بحيث لا يوجد من هو سيد على غيره. ولا يمكنه أن يكون كذلك، لأنه لا يملك القدرة التي تؤهله على فرض سيطرته على غيره. ومادام لكل فرد الرغبة على تأكيد ذاته وفرضها، فانه يدخل في صراع مع غيره[22].

2-الحالة الطبيعية هي حالة فوضى، حالة حرب، ينعدم فيها الاستقرار، ولا توجد فيها حضارة. الأمر الذي يجعل كل إنسان يخشى غيره، وعدو له، لا يثق إلا في قدراته وقوته[23]، وعليه فلا وجود لحياة اجتماعية تتخللها مظاهر المدنية.

3-الحالة الطبيعية تخلو فيها القيم الإنسانية، فلا وجود للظلم والعدل، الخطأ والصواب، تنعدم التي تزن الأفعال وتقيمها. فالحق في الحالة الطبيعية هو حرية كل إنسان في أن يستخدم قوته وفق ما يشاء هو نفسه من اجل الحفاظ على بقائه، وبعبارة أخرى عل حياته، وبالتالي الحق في أن يفعل كل ما يرى، بحكمه وعقله، انه أفضل السبل لتحقيق ذلك[24]. " فقبل أن يوجد

مكان لكلمات العدل والظلم، يجب أن توجد سلطة قسرية، لترغم الناس على انجاز عهودهم، خوفا من عقاب يفوق الفائدة التي يتوقعونها من كسر العهد."[25] وعليه فانعدام وجود قوة ملزمة للجميع، يتعذر مع ذلك وجود قانون، وبانعدام وجود قانون لا يوجد ظلم.[26] وبالتالي يجد الصراع ضالته ما لم يجد ما يحده.

4-لا وجود لملكية خاصة في الحالة الطبيعية. فكل ما يستطيع أن يحصل عليه الفرد هو ملك له. ويبقى ملكه متى كان قادرا على المحافظة عليه. فالملكية تظهر بظهور العقد الاجتماعي بين الناس، أي بظهور الدولة[27]، "لذلك حيث لا يكون هناك ما هو خاص به، أي لا ملكية، لا يكون هناك ظلم، أي حيث لم تقم سلطة قسرية، أي حيث لا وجود للدولة، لا وجود للملكية، بما أن الناس يملكون الحق في كل شيء"[28].

ضرورة الخروج من الحالة الطبيعية: كيف يمكن الخروج من الحالة الطبيعية، وبالتالي تجنب حالة الصراع الدائم، وحرب الكل ضد الكل؟

إن الخروج من هذه الحالة يفرضه العقل. ففي الحالة الطبيعية يسعى كل فرد للمحافظة على ذاته، وفرض وجوده، إلا أن ذلك يترتب عنه صراع مع غيره، يؤدي إلى حرب الكل ضد الكل، فيعرض بذلك نفسه إلى الخطر، وبالتالي القضاء على ذاته التي يسعى للحفاظ عليها[29]، وعليه فما يهدف إليه يترتب عنه نتيجة عكسية. هذا التناقض الذي يجعل الفرد يهرب من الموت باتجاه الموت، هو الذي يدفعه للخروج من الحالة الطبيعية، من أجل تجنب مواجهة الموت. وهكذا يجد الإنسان نفسه مرغما على الخروج من الحالة الطبيعية إلى حالة اجتماعية، والتي يتم فيها إنشاء دولة قوية، تفرض منطق الاستقرار والهدوء. إنها دولة الليفياتان.

الحرب الأهلية والعودة إلى الحالة الطبيعية:

لقد كانت نظرية هوبز السياسية انعكاسا للصراعات السياسية والاضطرابات الدينية التي شهدتها أوروبا، خلال القرن السابع عشر، وخصوصا حركات الإصلاح الديني، والحرب الأهلية في إنكلترا، وما خلفته من صراع.

وتعتبر الحرب الأهلية من أسوا الحروب التي تتعرض لها الشعوب، لما يستباح فيها من جرائم بفعل تعطل القوانين وانتشار الفوضى. فهي تختلف عن الحروب بين الدول، والتي تكون على العموم أكثر تنظيما، من خلال معرفة الأطراف التي تسيرها، وتحديد الأهداف التي ترمي إليها. وقد انتشرت في الآونة الأخيرة الحروب الأهلية، والتي أصبحت تأخذ صفة شبه عالمية. الأمر الذي يحتم إعادة دراسة الحرب بصورة عامة، والحرب الأهلية بصورة خاصة. من خلال نظريات فلسفية تناولتها بالتأمل والتفكير.

وتناول الحرب الأهلية من خلال دراسات فلسفية قد تعزز أكثر بانتشار الحروب الأهلية وتوفر ظروفها. والمقاربة بين نظريات الدولة الحديثة واستخدام فكرة الحالة الطبيعية في نشأتها، كان ضمن سياق تاريخي لحروب أهلية عرفتها أوروبا خلال القرنين 16 و17. وتمثل الحالة الطبيعية مختبر التفكير الأنتروبولوجي والسياسي والفلسفي. كما أنها الحالة التي تجبرنا على التفكير في الحرب[30]، انطلاقا من الارتباط الجوهري بين الحرب، وبالخصوص الحرب الأهلية، والحالة الطبيعية.

يمكن القول أن الحالة الطبيعية هي تصور خيالي ونظري، لكنه عقلاني، في وصف نشأة الدولة. وبالتالي الكيفية التي يتم من خلالها ظهور السلم بين الناس، والذي يتحقق عن طريق

اتفاق أو عقد، بحيث يتجمع الأفراد موجهون بإرادة مشتركة، أو وعي بمصلحة مشتركة، أو لأن الأقل ضعفا يبحثون عن حماية من طرف الأقوى. على هذا المستوى تنشأ المدينة التي يتم من خلالها اكتشاف الوحدة والهدوء المنظم[31]، وهكذا فان الحالة الطبيعية تعكس صورة التعارض التام بين الناس، بما يحتويه هذا التعارض من صراع وقتال، وبالتالي حربا أهلية.

من هذا المنظور تصبح حالة الحرب هي الوصف المناسب للحالة الطبيعية. و تمثل المدينة السلم الذي يتجسد في الحالة الاجتماعية. فالحالة الطبيعية هي الوجه السلبي الذي ينبغي التخلص منه أو العامل الأساسي للخلل السياسي الذي يمنع إقامة السلم والمحافظة عليه.

فالحالة الطبيعية عند هوبز هي المحور الحقيقي الذي ينبغي أخذه بعن الاعتبار في التفكير السياسي. كل فرد، بحكم طبيعته، يتوقع أن يتم الاعتراف به على أنه الأحسن والأرفع. إذن هناك فرص متساوية في أن يكون هو المعتدي. أو الدافع إلى الاعتداء، وبالتالي إلى النزاع والصراع. وكأن الحالة الطبيعية هي وصف تجريدي للحرب الداخلية.

كما أن الحرب الأهلية لا تعرف حدودا يتم من خلالها التمييز بين ما هو داخلي وما هو خارجي. هي حرب تتنافى والصراع الحدودي كخط يفصل بين دولتين. إن الحرب الأهلية هي الوجه السلبي للدولة، أو مرض الدولة. تغيب فيها الحدود، فالذي يتم قتله هو الذي يحمل المواطنة نفسها، الجار، القريب...[32].

وعندما يتحدث هوبز عن الحرب الخارجية غالبا ما يستحضر الحرب الداخلية، لكن العكس غير صحيح. فالحرب الأهلية هي الأولى. فهي على النقيض من الدولة السيدة المحمية. والحرب في الحالة الطبيعية ليست بمعنى العنف المنظم، وإنما شكل من المواجهة الممكنة التي تحدث بمجرد ما يكون الناس مع بعضهم البعض، والمشكل أنهم دائما كذلك.

إن الحالة الطبيعية عند هوبز هي بيان لما يمكن أن يحدث في أي وقت، في لحظة حرجة يكون فيها المجتمع في مرحلة تشكل، أو إمكانية فك الارتباط في مجتمع كان قد تشكل. فالحالة الطبيعية الخالصة وحالة الحرب تمثلان الانقطاع التام في الاستمرارية السياسية. انقطاع مع محدودية الزمان العادي، فالحالة الطبيعية توجد ضمن الزمن غير المحدود، إذ بإمكانها أن تظهر في أي لحظة، فالتمرد والعصيان ليس إلا إعلان عن الحرب ضد الحاكم. وفي المقابل يحق لهذا الأخير معاقبة المتمردين ومعاملتهم كأعداء[33].

إن الحرب الأهلية هي صورة التناقض بين المؤقت والعلاقات بين البشر، وعلى السياسي تجنبها ورفضها. فهي المؤشر البارز والسلبي للسياسة، فالشغب والعصيان بالنسبة لهوبز هي إشارات غير حيوانية للتجمع السياسي. إذ من المؤكد أن " بعض المخلوقات الحية، مثل النحل أو النمل، تعيش اجتماعيا مع بعضها... وهي ليست مدفوعة إلى ذلك إلا بميولها وبغرائزها الخاصة"[34]، بينما الحرب الأهلية بالنسبة إلى هوبز هي مؤشر لتجمع إنساني حقيقي. ذلك أن الإنسان يختلف عن هذه الكائنات الحيوانية، بحيث أنه يملك عقلا يعطيه القدرة على التمييز بين الخير والشر، ويدفعه ذلك إلى مقارنة نفسه بالآخرين، ولا يستحسن إلا ما يميزه عنهم، الأمر الذي يؤدي به إلى تنافس دائم مع غيره من البشر من أجل تحقيق أمجاده. كما أن العقل الذي يميز البشر يمكنهم من إدراك الخطأ في تسيير الشؤون العامة، مما يجعل البعض منهم يعتقد أنه مؤهل أكثر للقيام بذلك، الأمر الذي يدفع إلى محاولة التغيير، وما يتبع ذلك من صراع وحرب أهلية[35].

تعتبر الحرب الأهلية كنوع من التجديد لحالة الحرب الدائمة، وهي إمكانية حقيقية، واستمرارية ثابتة. حتى بعد إنشاء العقد الاجتماعي، فالذين يحملون السلاح لا يزالون في حرب. والحرب الأهلية شر بإمكانه أن يستيقظ. وباستخدام هوبز لتصور العداء الممكن الوقوع، فان ذلك يترتب عنه إمكانية إيقاظ حرب نائمة في أي وقت. ويعود ذلك إلى عدم قدرة الحكام في فرض سيطرتهم الأمر الذي يؤدي إلى تجرؤ المحكومين على الدفاع عن آرائهم ولو باستخدام السلاح، مما يترتب عنه ديمومة الحرب حتى وان لم تكن معلنة، وعليه فالاستقرار الذي يعيشونه لا يقوم على أساس السلام، وإنما على أساس تعليق استخدام السلاح. فيصبح الجميع في حالة استعداد دائم للحرب. لهذا يجب أن تكون السلطة مطلقة في الحكم تفاديا للدخول في حرب أهلية[36].

إن التفكير في حل المجتمع المنظم والعودة إلى الحالة الطبيعية يترتب عنه ووضع الدولة في قبضة الحرب الأهلية. فالاختفاء المفاجئ للقوانين المدنية يجعل الحالة الطبيعية أكثر وضوحا. وعليه منذ أن يتم حمل الأسلحة، ضد الحاكم أو بين أطراف متصارعة داخل المجتمع، تصبح الدولة مهددة. والهمجية كأسلوب مناقض للمدنية هو ما يمكن ملاحظته في الحالة الطبيعية عندما تندلع حربا أهلية، مع أن أصل اندلاعها لا يخلو من بعد سياسي: فصراع الآراء، والبحث عن السلطة، وإرادة التفوق، وقناعة البعض بأنهم أكثر حكمة من غيرهم، كلها طموحات سياسية[37]، تدفع إلى نشوب الصراع، وإيقاظ الحرب.

إن الحرب الأهلية هي ممر ينتقل بالمجتمع انتقالا مربكا نحو المجهول. وهوبز ينتقد العصيان والتمرد الذي يهدف إلى إقامة دولة داخل الدولة الأولى. فالطموح الوحشي يدفع بالمتمردين إلى التدمير من أجل إقامة أمر ما.عندها يتم إحياء الحالة الطبيعية بما تحمله من استمرارية القتال في الدولة.

وهكذا فالحرب الأهلية بين الأفراد تعيد وضع الدولة في بداية ما قبل السياسة. وتصبح الحالة الطبيعية هي أنموذج نفي السياسة داخل السياسة[38]، وهذه الازدواجية في أنموذج الحالة الطبيعية هي ركيزة أساسية لفهم الحرب الأهلية التي ترتكز على مسلمتين في أن واحد، ديمومة الحالة الطبيعية، والانتقال من الحالة الطبيعية إلى الحالة الاجتماعية.

وإذا كانت الحرب عموما قد ارتبط وجودها بوجود الإنسان في الحالة الطبيعية، ويعم السلام بانتقال الإنسان إلى مجتمع منظم، فان الحرب الأهلية تطرح مشكلة دوام الحالة الطبيعية في قلب الحالة الاجتماعية نفسها. الأمر الذي يجعلها أخطر من الأولى. فخطورتها لا تكمن في هزيمة الدولة أمام دولة تحاربها، وإنما في انهيار كيان الدولة نفسها.

---

[1] Fredrric ENCEL, **L'Art de la guerre par l'exemple – Stratèges et Batailles,** Flammarion, 2000, Paris, p 23.

[2] Sun Tzu, **L'Art de la guerre**, traduit de l'anglais par Francis Wang, texte politique, Flammarion, Paris, 1972, p 95

[3] Ibid. p 107.

[4] غاستون بوتول، **هذه هي الحرب** ، ترجمة: مروان القنواتي، الطبعة الأولى، منشورات عويدات، بيروت، 1981، ص 18.

[5] المرجع نفسه. ص:27.
[6] عبد الرحمان بدوي، **موسوعة الفلسفة**، الجزء الثاني، بيروت، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1984، ص: 560.
[7] المرجع نفسه، ص: 560.
[8] ليو شتراوس، جوزيف كروبسي، **تاريخ الفلسفة السياسية** - الجزء الأول، ترجمة محمود سيد أحمد، مراجعة إمام عبد الفتاح إمام، مصر، المجلس الأعلى للثقافة، 2005، ص 573.
[9] عبد الرحمان بدوي، **موسوعة الفلسفة**، ص: 560، 561.
[10] فضل الله إسماعيل، **فلسفة القوة أصولها وتطورها في الفكر السياسي الغربي وآثارها في عالم السياسة**، الإسكندرية، مكتبة بستان المعرفة، الطبعة الأولى 2002، ص: 43.
[11] المرجع نفسه، ص: 45، 46.
[12] إمام عبد الفتاح إمام، **توماس هوبز فيلسوف العقلانية**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1985، ص 306.
[13] المرجع نفسه، ص 308.
[14] ليو شتراوس، جوزيف كروبسي، **تاريخ الفلسفة السياسية** - ، ص 577.
[15] إمام عبد الفتاح إمام، **توماس هوبز فيلسوف العقلانية**، ص 309.
[16] المرجع نفسه. ص 313.
[17] المرجع نفسه، ص 315.
[18] ليو شتراوس، جوزيف كروبسي، **تاريخ الفلسفة السياسية** ، ص 578.
[19] توماس هوبز **اللفياتان الأصول الطبيعية والسياسية لسلطة للدولة**، ترجمة ديانا حرب وبشرى صعب، الطبعة الأولى، ابوظبي:هيئة أبوظبي للثقافة والتراث- كلمة، 2011، ص 178.
[20] إمام عبد الفتاح إمام، **توماس هوبز فيلسوف العقلانية**، ص 316.
[21] المرجع نفسه. ص 318.
[22] المرجع نفسه، ص 322.
[23] المرجع نفسه ، ص 322.
[24] توماس هوبز **اللفياتان الأصول الطبيعية والسياسية لسلطة للدولة**، ترجمة: ديانا حرب وبشرى صعب، الطبعة الأولى، أبو ظبي:هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث- كلمة، 2011، ص 138.
[25] المرجع نفسه. ص 152.
[26] إمام عبد الفتاح إمام، **توماس هوبز فيلسوف العقلانية**، ص 323.
[27] المرجع نفسه، ص 324-325.
[28] توماس هوبز، **اللفياتان ، الأصول الطبيعية والسياسية لسلطة للدولة**، ص 152.
[29] إمام عبد الفتاح إمام، **توماس هوبز فيلسوف العقلانية**، ص 325.
[30]Ninon GRANGÉ, « L'état de nature, modèle et miroir de la guerre civile », **Astérion** [En ligne], 2 | 2004, mis en ligne le 05 avril 2005, consulté le 04 juin 2017. URL : http://asterion.revues.org/102
[31]Ibid.
[32] Ibid.
[33] Ibid.
[34] Thomas HOBBES, **Léviathan ou Matière, forme et puissance de l'état chrétien et civil**, Traduction par Gérard Mairet, Edition Gallimard, 2000, p 285.
[35]Ibid. p 285-286.
[36]Ibid. p 297.
[37] Ninon GRANGÉ, « L'état de nature, modèle et miroir de la guerre civile ».
[38] Ibid.